الشك في أشعار السيرة النبوية لابن هشام

د. نزيه محمد إعلاوي (*)

د. أيمن سليم الأحمد (*)

ملخص

يتناول هذا البحث مسألة الشك فيما أورده ابن إسحاق في السيرة النبوية من أشعار، فيتتبع هذه المسألة في نشأتها قديما بما بثه محمد بن سلام الجمحي في كتابه (طبقات فحول الشعراء) من أحكام نقدية تثير قدرا كبيرا من عدم الاطمئنان إلى ما أورده ابن إسحاق في السيرة من شعر . ويعرض آراء بعض الدارسين الذين سلكوا نهج ابن سلام من قدماء ومحدثين ، ومنهم محققو السيرة، ولم يشفع عندهم لأشعار السيرة ما بذله ابن هشام من جهد كبير في تدقيقها وتهذيبها .

وعرض البحث جهد الدكتور ناصر الدين الأسد في كتابه (مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية) لإنصاف ما في كتب السيرة من أشعار . واشتمل البحث على محاولة للنظر نظرة إحصائية تبين نسبة ما لم تثبت صحة نسبته إلى مجموع ما احتوته السيرة من أشعار .

وخلص البحث إلى أن أشعار السيرة بعد تهذيب ابن هشام لها ليست أقل وثاقة مما نقلته المصادر الأخرى من أشعار .

(*) قسم اللغة العربية – كلية السلط للعلوم الإنسانية – جامعة البلقاء التطبيقية السلط – الأردن.

(*) قسم اللغة العربية – كلية الآداب – جامعة إربد الأهلية – الأردن .

Abstract

This paper deals with the uncertainty regarding the poetry Ibn Ishaaq included in Al-Seera Alnabauya(Prophetic Biography) , tracing it back from its early emergence in Ibn Sallam Al-Jumahi's Tabaqat f uhul Al-Shua'ra' (Categories of Distinguished Poets) which included much criticism wich , in turn , aroused uncertainty of the poetry Ibn Isaaq referred to in his Al-Seera Alnabauya . The work shows some of the points of view of both contemporary and ancient scholars' who followed Ibn SallamAl-Jumhi's school of thought .

In addition to highlighting the effort Naser Al-Din Al-Asad exerted in his Masadir Alsh'r Al-Jahili trying to give poetry in Al- Seera its credit, the paper follows a statistic approach to find out the percentage of the (not-authentic) poetry to the authentic in Al-Seera Alnabauya . The work finally concludes that Al-Seera poetry , after being investigated by Ibn Hisham, is as authentic as other sources of poetry.

شاع عند عدد من دارسي الشعر القديم أن الشعر الوارد في السيرة النبوية لابن هشام المعتمد على رواية ابن اسحق، هو من الشعر الذي لا يطمأن إلـــى صحته ،وتهدف هذه الدراسة إلى التحقق من أن عدم الاطمئنان هذا يستند إلـــى مسوغات علمية يعتدّ بها .

ولعل من أبرز ما ينتهي إليه المتتبع لمسيرة البحث في ذلك الـــشعر تـــأثر الدارسين والباحثين، بصورة واضحة، بما ذكره محمد بن سلام الجمحي حول هذا الأمر في طبقاته منذ القرن الثالث الهجري ، وإذا عدنا إلى طبقـــات ابـــن سلام ، نجد أن أبرز ما جاء في هذا المجال قوله : " وكان ممن أفسد الـــشعر وهجنه وحمل كل غثاء منه : محمد بن إسحاق بن يسار ، مولى آل مخرمة بن المطلب بن عبد مناف ، وكان من علماء الناس بالسير ... فقبل النـــاس عنـــه الأشعار ، وكان يعتذر منها ويقول : لا علم لي بالشعر ، أوتى به فأحمله . ولم يكن ذلك له عذرا . فكتب في السير أشعار الرجال الذين لم يقولوا شعرا قـــط ، وأشعار النساء فضلا عن الرجال ، ثم جاوز ذلك إلى عاد وثمود ، فكتب لهـــم أشعارا كثيرة ، وليس بشعر ، إنما هو كلام معقود بقواف . أفلا يرجع إلـــى نفسه فيقول : من حمل هذا الشعر ؟ ومن أداه منذ آلاف السنين ؟ والله تبـــارك وتعالى يقول : ﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ ﴾ – الأنعام٤٥– أي : لا بقية لهم . وقال أيضا : ﴿ وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى . وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى ﴾ – النجم ٥٠–٥١ ، وقال في عاد : ﴿ فَهَلْ تَرَى لَهُم مِّـــن بَاقِيَـــةٍ ﴾ – الحاقـــة٨– وقـــال : ﴿ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا ﴾ – الفرقان٣٨– وقال : ﴿ أَلَمْ يَـــأْتِكُمْ نَبَـــأُ الَّـــذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِـــن بَعْـــدِهِمْ لاَ يَعْلَمُهُـــمْ إِلاَّ اللّـــهُ ﴾ – إبراهيم٩–" (١) .

وبعد أن يبين ابن سلام تهافت القول بأن يكون لأولئك شعر ، يعقب: " فلو كان الشعر مثل ما وضع لابن إسحاق ، ومثل ما رواه الصحفيون ، ما كانت إليه حاجة ، ولا فيه دليل على علم "(٢) .

وفي موضع آخر من الطبقات قال: " ولأبي سفيان بن الحارث شعر كان يقوله في الجاهلية ، فسقط ولم يصل إلينا منه إلا القليل . ولسنا نعد ما يروي ابن إسحاق له ولا لغيره شعراً ، ولأن لا يكون لهم شعر أحسن من أن يكون ذاك لهم " (٣) .

ويبدو أن أقوال الجمحي هذه قد أشاعت بين دارسي الشعر القديم عدم الاطمئنان إلى ما روي في السيرة من أشعار ، وذلك بالرغم من الجهد الحثيث والعمل النقدي المتزن ، والتتبع التحقيقي المفصّل الذي نهض به عدد من الدارسين لأشعار السيرة حتى قبل مقولات ابن سلام (٤) ، فقد ترددت أقوال ابن سلام، أو تردد صداها من بعده عند عدد ممن تناولوا مسألة النحل في الشعر القديم ، ومن هؤلاء على سبيل المثال ابن النديم في الفهرست ، يقول :

" ويقال كان يعمل له الأشعار ويؤتى بها ، ويسأل أن يدخلها في كتابه السيرة فيفعل ، فضمن كتابه ما صار به فضيحة عند رواة الشعر " (٥) .

ومن المحدثين نجد مصطفى صادق الرافعي الذي يقول:

" ... فلما كثر القصّاصون وأهل الأخبار اضطروا من أجل ذلك أن يصنعوا الشعر لما يلفقونه من الأساطير حتى يلائموا بين رقعتي الكلام ، وليحدروا تلك الأساطير من أقرب الطرق إلى أفئدة العوام ، فوضعوا من الشعر على آدم فمن دونه من الأنبياء وأولادهم وأقوامهم ، وأول من أفرط في ذلك محمد بن إسحاق ..."(٦) .

وشيوع عدم الاطمئنان إلى أشعار السيرة كان مما استند إليه مرجليوث وهو يدافع عن أطروحته في الشك بصحة الشعر الجاهلي عامة ، يقول :

" وكذلك الأشعار المقحمة في حياة النبي من قبل ابن إسحاق ، من الراجح أنها من أوائل نصوص الشعر العربي القديم ، كانت قد عملت حسب الطلب ، وفي حالات عديدة يلاحظ ابن هشام مهذب كتاب السيرة تزييفهم ، ولكن إذا كان هناك أي سبب لافتراض أن أيا منها كان صحيحا فإن هذا الاحتمال ضعيف " (٧) .

أما طه حسين ، فيقول :

" ولا أكاد أشك في أن هؤلاء القصاص لم يكونوا يستقلون بقصصهم ، ولا بما يحتاجون إليه من الشعر في هذا القصص ، وإنما كانوا يستعينون بأفراد من الناس يجمعون لهم الأحاديث والأخبار ويلفقونها ، وآخرين ينظمون لهم القصائد وينسقونها . ولدينا نص يبيح لنا أن نفترض مثل هذا الفرض ، فقد حدثنا ابن سلام أن ابن إسحاق كان يعتذر عما يروي من غثاء الشعر فيقول: لا علم لي بالشعر ، إنما أوتى به فأحمله . فقد كان هناك قوم إذن يأتون بالشعر وكان هو يحمله . فمن هؤلاء القوم ؟ أليس من الحق لنا أن نتصور أن هؤلاء القصاص لم يكونوا يتحدثون إلى الناس فحسب ، وإنما كان كل واحد منهم يشرف على طائفة غير قليلة من الرواة والملفقين ومن النُّظام والمُنسقين ، حتى إذا استقام لهم مقدار من تلفيق أولئك وتنسيق هؤلاء طبعوه بطابعهم ونفخوا فيه من روحهم وأذاعوه بين الناس " (٨) .

وكانت هذه المسألة حاضرة عند محققي السيرة النبوية لابن هشام ، فيقولون في تقديمهم للسيرة :

" ... بقيت مسألة ، وهي اتهام ابن إسحاق بأنه كانت تعمل له الأشعار ، يؤتى بها ، ويُسأل أن يدخلها في كتابه في السيرة فيفعل . والحق أن هذا مأخذ على ابن إسحاق ، إن لم يكن في طريقة النقل والتحمّل ، فهو مطعن في مقدار علمه بالشعر ، وأنه يقبل الأشعار غثها ،وسمينها ، باطلها و صحيحها ، ولو أن ابن إسحاق حكّم ذوقه ، ووقف من هذه الأشعار وقفة الناقد ، لخلص كتابه من أشعار أكثر الظن فيها أنها موضوعة ، ولخلص نفسه من مطعن جارح يسجله الكتاب عليه على مر السنين " (٩) .

يظهر مما سبق أن ابن سلام وجّه نقداً عاماً لمنهج ابن إسحاق في رواية الشعر، وضرب أمثلة دالة على فساد ذلك المنهج كما رأى، والمثل الأبرز الذي ساقه ابن سلام للدلالة على فساد منهج ابن إسحق، هو حمل ابن إسحاق لأشعار تنسب للأمم السابقة(١٠) ، لكن هذا الأمر ، رغم دلالته الموحية بعدم الثقة، لا يعني أن مجمل الأشعار الواردة في السيرة لا يمكن الاطمئنان إلى صحتها . ورغم ما يعرف عن ابن سلام من بصر بالشعر، ومن امتلاكه لذائقة نقدية عالية، إلا أننا ، مثلاً ، لا يمكن أن نسلم معه تسليماً تاماً برأيه في صحة الشعر المنسوب لأبي سفيان وغيره في السيرة، فالقول بأن " لا يكون لهم شعر أحسن من أن يكون ذاك لهم "(١١) ليس حجة في عدم صحة نسبة ذلك الشعر إلى من نسب إليه.

والواقع أن التأكد من صحة نسبة الأشعار إلى من نسبت إليهم مهمة ليست باليسيرة، يعرف صعوبتها جمهور النقاد ومحققو الأشعار الذين نهضوا بها ،وقد عجز هذا الجمهور عن تنقية أشعار شاعر واحد مما شابها من وضع وخلط هو حسان بن ثابت، ويعترف ابن سلام بذلك ، إذ يقول عن حسان: " وهو كثير الشعر جيده ، وقد حمل عليه ما لم يحمل على أحد . لما تعاضهت قريش واستبّت ، وضعوا عليه أشعارا كثيرة لا تنقّى" (١٢) ، فمهمة تنقية الأشعار

وتصفيتها وتوثيقها من أصعب المهمات، بل هي مهمة تكاد تكون مستحيلة ؛ فالشاعر الواحد أشعاره متفاوتة المستوى ، والشعر لم يتح له من النقد ما أتيح للحديث النبوي الشريف . ويلحظ من خلال الأحكام النقدية التي يقدمها ابن هشام صعوبة المهمة وأنها محفوفة بمزالق شتى ، وإمكان الوهم ، وإسقاط الصحيح ، وإثبات الغث .

وبغض النظر عن مدى صحة نقد ابن سلام لعمل ابن إسحاق ، وخطورة تعميم حكمه على أشعار السيرة كلها، فالواضح أن ابن سلام كان قد وجه سهام نقده إلى عمل ابن إسحاق قبل أن يخضعه ابن هشام للتهذيب، وبالرغم من أن عدداً ممن جاء بعد ابن سلام من الدارسين كان قد اطلع على عمل ابن إسحاق في صورته المهذبة عند ابن هشام ، فقد ظل نقد ابن سلام حاضرا عند استحضار أشعار السيرة، و تكراراً لأقوال ابن سلام ذاتها، وقد أسهم ذلك- كما نرى- في شيوع عدم الثقة في أشعار السيرة حتى بعد تهذيب ابن هشام لها. والواقع أن الدارسين المحدثين لم يطلعوا على عمل ابن إسحاق في صورته الأولى قبل تهذيب ابن هشام، فهو لم يصل إلينا، وعلى ذلك فإن تكرارهم لأقوال ابن سلام الذي نقد عمل ابن إسحاق قبل تهذيبه يخلو من الدقة العلمية أولاً، ويساهم في إشاعة عدم الثقة في أشعار السيرة ثانياً.

إن شيوع عدم الاطمئنان في أشعار السيرة يبدو غير مبرر في ضوء ما قام به عالم بصير مثل ابن هشام، وفي ضوء ما تتبعه عالم مدقق جاد آخر هو الدكتور ناصر الدين الأسد، فالنظر في عمل هذين العالمين يقود إلى أن أشعار السيرة ليس فيها من ناحية صحتها كبير خلاف عن الأشعار الأخرى يوجب النظر إليها بعين الشك ابتداء.

يحدد ابن هشام منهج عمله في السيرة في بداية الكتاب فيقول : " وأنا إن شاء الله مبتدئ هذا الكتاب بذكر إسماعيل بن إبراهيم ، ومن ولد رسول الله ﷺ

من ولده ، وأولادهم لأصلابهم ، الأول فالأول ، من إسماعيل إلى رسول الله ﷺ ، وما يعرض من حديثهم ، وتاركٌ ذكرَ غيرهم من ولد إسماعيل ، على هذه الجهة للاختصار ، إلى حديث سيرة رسول الله ﷺ ، وتارك بعض ما ذكره ابن إسحاق في هذا الكتاب ، مما ليس لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيه ذكر ، ولا نزل فيه من القرآن شيء ، وليس سببا لشيء من هذا الكتاب ، ولا تفسيرا له ، ولا شاهدا عليه ، لما ذكرت من الاختصار ، وأشعارا ذكرها لم أر أحدا من أهل العلم بالشعر يعرفها ، وأشياء بعضها يشنع الحديث به ، وبعض يسوء بعض الناس ذكره ، وبعض لم يقر البكّائي بروايته ؛ ومستقص إن شاء الله تعالى ما سوى ذلك منه بمبلغ الرواية له ، والعلم به "[١٣] .

يوضح النص السابق المنهج الذي سلكه ابن هشام في تهذيب السيرة، ولعل أبرز ما في هذا المنهج مما يتصل بهذه الدارسة أنه ترك أشعاراً ذكرها ابن إسحاق لم ير أحداً من أهل العلم بالشعر يعرفها، وقد يُفهم أن من الأشعار التي تركها ما يشنع الحديث به، أو يسوء بعض الناس ذكره كما رأى. وقد يفهم من النص أن الذي تركه ابن هشام من الأشعار التي لم يجد أحداً من أهل العلم يعرفها ليس جميعها.

والناظر في الأشعار التي التي أوردها ابن هشام في السيرة يجد أن جزءاً منها قد حظي بنقد أو تعليق من ابن هشام، وقد تتبع الدكتور ناصر الدين الأسد الأشعار التي أخذها ابن هشام على ابن إسحاق ونقده فيها ، فوجده لا يعدو واحدا من أمور أربعة :

الأول : " أنه يورد أبيات الشعر التي أوردها ابن إسحاق ، وينسبها إلى من نسبها إليه ابن إسحاق ، ثم يضيف أنها قد تنسب كلها أو بعضها إلى غيره . وقد تكرر منه ذلك في ثمانية وعشرين موضعا"[١٤] .

والثاني : " تعقبه ابن إسحاق في إيراده الحادثة التاريخية كما وردت في سيرة ابن إسحاق حتى إذا وصل إلى الشعر الذي قيل في هذه الحادثة أسقطه ولم يثبته لأنه لم يصح عنده " [١٥]. ويرى الأسد أن ذلك قد يكون "تكرر منه في مواطن كثيرة ، لأنه ذكر في المقدمة أنه ترك أشعارا ذكرها ابن إسحاق ولم ير أحدا من أهل العلم بالشعر يعرفها " [١٦] ؛ لكن الأسد يستدرك بأنه حين تتبع هذا الضرب من تعقيباته لم يجده نص عليه إلا في موضعين اثنين" [١٧] .

والثالث : حين يذكر " أبياتا من الشعر الذي أورده ابن إسحاق ، ويكتفي بها ، ولا يورد باقيها ثم يقول إن ذلك ما صح له منها ؛ وقد تكرر ذلك منه في ثمانية مواضع" [١٨] .

الرابع – حين " كان ابن هشام يورد الشعر الذي أورده ابن إسحاق كاملا لا يخرم منه بيتا ، ثم يذكر أنها منحولة ؛ تكرر منه ذلك في ستة وثلاثين موضعا ويكاد يلتزم في تعبيره عن شكه ، أربعة أنواع من العبارة :

أ-" وأكثر أهل العلم بالشعر ينكرها له ".

ب- " وبعض أهل العلم بالشعر ينكرها له ".

ج- " لم أر أحدا من أهل العلم بالشعر يعرف هذا الشعر / أو يعرفها له / أو يعرفها لفلان... "(أربعة مواضع فقط) .

د- وقد نص في موضع واحد على اسم عالم من علماء اللغة والشعر والأخبار هو أبو عبيدة ؛ وذلك أنه أورد قصيدة من اثني عشر بيتا رواها ابن إسحاق لعمرو بن معديكرب . ثم قال إن أبا عبيدة أنشده الأبيات الثلاثة الأولى منها، وفيها خلاف في رواية بعض ألفاظها ، وأنه لم يعرف سائرها " [١٩].

ويستكمل د. الأسد نظره في عمل ابن هشام في السيرة ، فيذكر أنه استدرك على ابن إسحاق عدداً من المآخذ لم تدخل في الأصناف السابقة [٢٠] .

يستخلص من تعليق الدكتور ناصر الدين الأسد بعد استعراضه للجهد الضخم الذي بذله ابن هشام في تهذيب سيرة ابن إسحاق أن الأحكام المبالغة في التشكيك في صحة أشعار السيرة لا تخلو من المغالاة وعدم الإنصاف ؛ ويرى أن " الأمر في حاجة إلى التقييد بعد هذا الإطلاق الذي ذهب إليه ابن سلام في أمر الشعر الذي أورده ابن إسحاق" [٢١] ، ويقول إنه " إذا ما عرضنا الشعر الذي أورده ابن إسحاق في سيرته – وبقي لنا بعد تهذيب ابن هشام – وجدنا أن الشعر عنده في ثلاثة ضروب :

الأول : الشعر الذي لا خلاف في أنه موضوع مصنوع ، وهو الذي نسب إلى آدم وإسماعيل والأمم القديمة والعرب البائدة . وليس في السيرة التي بين أيدينا إلا القليل منه ، وإن كان قسم كبير منه قد حفظ في كتب التاريخ مرويا عن ابن إسحاق ، وذلك لأن ابن هشام قد حذف هذا القسم في تهذيبه للسيرة ونص على ذلك في مقدمته.... فكأن ابن إسحاق يرى – بمثل هذا الاحتياط الذي كان يصطنعه – أن هذه الأخبار والأشعار أصبحت من التراث المروي ، وأن لا سبيل إلى البحث العلمي في صحتها وصدق نسبتها .

الثاني : فهو الذي قيل قبيل البعثة أو في السنوات الأولى منها ، فهو بذلك أقرب إلى الصحة ، بل إن بعضه صحيح لا شك فيه وإن اختلف بعض الرواة في نسبته .

الثالث : فهو هذه الأبيات المجاهيل والقصائد التي لا يعرف اسم قائلها أو لا ينص عليه ؛ ومع أن القسمين الأولين واضحا الدلالة على ما نذهب إليه في أمر الشعر الجاهلي الذي يرد في مثل هذه الكتب ، فإن هذا القسم أوضح منهما دلالة لأنه يصلنا بكثير من الشعر الذي ورد في بحثنا عن كتب اللغة والنحو والذي سيرد في بحثنا عن كتب الأدب عامة . ووجه الدلالة في هذا القسم أن

قائل الشعر أو تحقيق نسبته ليس من الأمور التي يشغل بها المؤرخ أو كاتب السيرة نفسه ، كما لم يشغل بها نفسه اللغوي أو النحوي "(٢٢) .

ورغم الجهد العظيم الذي بذله ابن هشام في محاولته تنقية أشعار السيرة مما شابها ، فإن بعض الدارسين قد يرى أن هناك اشعاراً ظاهرة الوضع ، لكن ابن هشام أثبتها ، يقول محققو السيرة على سبيل المثال :

" وقد كان رحمه الله إماما في النحو واللغة العربية . ويحدثنا عنه الذهبي وابن كثير ، أنه حين جاء إلى مصر اجتمع به الشافعي وتناشدا من أشعار العرب أشياء كثيرة . وغريب أن نسمع هذا ، ونحن نعلم أن ابن هشام كان حين ينقل عن ابن إسحاق أشعارا في هذا الكتاب ظاهرة الوضع فاسدة ، لا يستطيع أن يقطع فيها برأي ويقول : هكذا حدثنا أهل العلم بالشعر ، ناقلا عنهم ، غير محكم ذوقا اكتسبه من هذا شأنه في استيعاب الأشعار" (٢٣) .

ورغم ما قد يبدو لبعض الدارسين من وجود أشعار في السيرة يرونها واضحة الوضع، إلا أن من الإنصاف القول إن ابن هشام قد قام بعمل كبير، وكان يملك من العلم والمعرفة بالشعر ما جعله مؤهلاً لتهذيب ما روي من الشعر في السيرة، يدلنا على ذلك تلك النظرات الثاقبة والأحكام النقدية التي ما فتئت تصدر عنه هنا وهناك في حنايا كتاب السيرة ،ورأينا ما يكفي من ذلك فيما اقتبسناه مما أورده الدكتور ناصر الدين، وتشير شواهد دالة أخرى على سعة ثقافة هذا الناقد وروايته وحفظه وقدرته على المقارنة وتنويع الرواية والاستشهاد بالشبيه وعلمه بالأنساب واللغة وتاريخها ، واعتماده في رواية الشعر على مشاهير الرواة وموثقيهم ، إذ يقول : " وأنشدني أبو مُحرز خلف الأحمر وأبو عبيدة ، لعباس بن مرداس ، أحد بني سليم بن منصور ابن عكرمة بن خَصَفة بن قيس بن عَيلان بن مضر بن نزار بن معدّ بن عدنان، يفخر بعك :

وعك بن عدنان الذين تلقّبوا بغسّان حتى طرّدوا كل مَطْرِدِ

وهذا البيت في قصيدة له . وغسان : ماء بسد مأرب باليمن كان شِربا لولد مازن بن الأسْد بن الغوث فسمُّوا به ، ويقال غسان ماء بالمُشَلَّل قريب من الجُحْفة ، والذين شربوا منه فسمّوا به قبائل من ولد مازن بن الأسْد بن الغوث ابن نبت بن مالك بن زيد ابن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان . قال حسان بن ثابت الأنصاري ، والأنصار بنو الأوس والخزرج ، ابني حارثة ابن ثعلبة بن عمرو بن عامر بن حارثة ابن امرئ القيس بن ثعلبة بن مازن بن الأسْد بن الغوث :

إما سألتِ فإنّا معشرٌ نُجُبُ الأسْدُ نِسبَتُنا والماءُ غسّانُ

وهذا البيت في أبيات له" (٢٤) . ونرى هنا كيف أن ابن هشام يغتنم فرصة الشرح ليقدم معارفه النقدية المتنوعة، وفي هذا دلالة واضحة على سعة علمه . وهو حين يروي الأبيات ينسبها إلى أصحابها ويردّها إلى رواتها إن كانت هناك ضرورة. ويظهر ابن هشام اطلاعاً واسعاً على أسباب قول الأشعار والمرويات، ومعرفه بتواريخ الأشعار وما يتعلق بها (٢٥) .

وقد أكثر في توثيق أشعار السيرة برواية أبي زيد الأنصاري لهذه الأشعار، وأبو زيد من الرواة الثقاة المقبولي الرواية ، وهو راوي أشعار الأنصار .(٢٦)

ولابن هشام ثقافة عروضية واسعة ، ظهر ذلك في عدد من تعليقاته في السيرة، منها قوله عند تفسيره للمواطأة لغة : " ليواطئوا : ليوافقوا، والمواطأة : الموافقة ، تقول العرب : واطأتك على هذا الأمر ، أي وافقتك عليه . والإيطاء في الشعر الموافقة ، وهو اتفاق القافيتين من لفظ واحد ، وجنس واحد "(٢٧) . لكن كل ذلك لا يعني انه لا يوجد ما يستدعي إعادة النظر فيما أورده ابن هشام من الشعر، فعمل ابن هشام مثل غيره قد يقع فيه بعض الهنات،

من ذلك أنه رغم تتبعه لابن إسحاق فيما يرويه، ونقده له ،وردّه الأبيات إلى أصحابها ، وتصحيحه نسبتها ، نجده يقع هو نفسه في خلط النسبة ، أو على الأقل هناك من يرد نسبته لأبيات[٢٨] ، وهذا يدل- كما يرى د. الأسد- على أن صحة النسبة في الشعر القديم ينبغي أن تأخذ مأخذ التوسع لا مأخذ التشدد ، فالتوثيق الدقيق يبدو أنه مما لا يمكن القطع به في هذا الباب [٢٩] .

وقضية إعادة النظر في رواية الشعر القديم لا تقتصر على عمل ابن هشام، بل هي تتصل برواية الشعر القديم بصورة عامة،فمثل تلك الأشعار التي يُعترض عليها عند ابن هشام نجدها في كثير من دواوين الشعراء، وهي في السيرة لا تشكل – فيما نرى- سبباً لشيوع عدم الاطمئنان لمجمل ما ورد في السيرة من أشعار. بل إن بعض الباحثين المحدثين يثني على إثبات أشعار من الأشعار التي شكك ابن هشام في نسبتها إلى هؤلاء الشعراء ، إثباتها في دواوينهم المحققة ، فيقول : " في الديوان المجموع قدر من الشعر مشكوك في صحة نسبته إلى ابن الزبعرى . فالقصائد ٣ ، ١٢ ، ١٩ ، نسبها ابن إسحاق إلى ابن الزبعرى ، وأنكر بعض أهل العلم ممن رجع إليهم ابن هشام صحتها ، ولعلي أتفق مع المحقق الفاضل في إثبات القصائد السابقة ضمن الثابت من شعر ابن الزبعرى، لأنها على الأقل لم تنسب إلى غيره في أي مصدر آخر "[٣٠] .

تتبعت هذه الدراسة الأحكام النقدية التي تشير إلى نحل الشعر، أو عدم صحة نسبته ، أو فساده ، التي عقب بها ابن هشام على أشعار السيرة ، وصنفها الدكتور ناصر الدين الأسد في قوائم أربع – كما ورد سابقا – فوجدت أنها وردت في أربعة وسبعين موضعا ، و تتبعت الدراسة مجمل ما بقي من الأشعار التي أوردها ابن إسحاق في السيرة بعد تهذيب ابن هشام مصنفة حسب عدد الأبيات ، فكانت كما يلي :

- بيت واحد إلى ثلاثة أبيات : وردت في مئتين وستة عشر موضعا .

- أربعة أبيات إلى عشرة أبيات : وردت في مئة وتسعة وثلاثين موضعا .

- أكثر من عشرة أبيات : وردت في مئة وخمسة مواضع .

وبذلك يكون مجموع المواضع التي أوردها ابن هشام خمسمئة وستين موضعا .

وإذا كان من الجائز الافتراض أن الأشعار التي أثبتها ابن هشام في السيرة دون تعليق يشكك في صحتها أو صحة نسبتها هي أشعار لها حظ من الصحة ، فإن نسبة ما لم يقبله ابن هشام من أشعار السيرة هي أربعة وسبعون مقسومة على العدد الكلي للمواضع ، فيكون الناتج أن ما نسبته نحو ثلاثة عشر بالمئة، وهي نسبة لا تبرر – برأينا – ما شاع من عدم الثقة في أشعار السيرة. وقريب من هذه النسبة نسبة عدد الأبيات المشكوك في صحتها إلى تلك التي لم يشكك ابن هشام بها . فمن بين أربعة آلاف وثلاثمئة وسبعة وأربعين بيتا وردت في السيرة شك بستمئة وثمانية عشر بيتا أي ما نسبته نحو أربعة عشر بالمئة .

ومن الأمثلة اللافتة في هذا المجال ما قام به الدكتور وليد عرفات في مقدمة تحقيقه لديوان حسان (رواية ابن حبيب عن السكري)، فقد أحصى ما رفضه ابن هشام من أشعار حسان وشكك في نسبتها إليه فوجدها خمس عشرة بين مقطوعة وقصيدة من أصل ثمان وسبعين[٣١] ، أي أن ما رفضه ابن هشام من أشعار حسان الواردة في السيرة هو نحو خمسها ، وهي نسبة قليلة قياسا إلى ما أشاعه ابن سلام حول ما لحق شعر حسان من وضع فيما ذكر سابقا .

ومن غريب ما يتبدى من النظر في الإحصاء الذي يورده الدكتور وليد عرفات أن من بين تسع وأربعين قصيدة ومقطوعة وردت في السيرة وأثبتت في الديوان برواية ابن حبيب عن السكري – على وثاقتها – عشرا مما رفضه

ابن هشام أو شك فيه[٣٢] ، وهذا يشير إلى أن العمل الذي قام به ابن هشام – الإمام في اللغة والنحو – [٣٣] لا يقل بأي صورة عن عمل أبرز الرواة وصانعي الدواوين المحترفين. فصناع الدواوين والمجاميع الشعرية الذين اعتمدوا السيرة في رواية أشعار دواوينهم ومجاميعهم يشيدون بوثاقة هذه الأشعار لأنها لاقت قدرا من التدقيق والتمحيص والتوثيق على يدي ابن هشام ، فهذه الأشعار ، في نظر هؤلاء ، ليست الأشعار التي قصدها ابن سلام في عموم شكه بأشعار سيرة ابن إسحاق، إنها أشعار سيرة ابن هشام الموثقة المنتقاة المعتنى بها عناية نقدية خاصة ؛ يقول د. سامي مكي العاني : " السيرة التي اعتمدنا عليها في جمع شعر كعب هي سيرة ابن هشام ، وليست سيرة ابن إسحاق التي تعرضت للحملات السابقة . وابن هشام لم يكن راويا لسيرة ابن إسحاق فحسب ، وإنما عمل على تعقب ابن إسحاق ، فاختصر بعض ما أورده، ونقد بعضه الآخر .وقد بسط منهجه في المقدمة إزاء الشعر وغيره " [٣٤] .

ويبدو أن صناع الدواوين والمجاميع الشعرية قد اعتمدوا أشعار السيرة في جمعهم دواوين الشعراء آخذين صحيح النسبة وما شكك ابن هشام في نسبته ، فمن بين خمسمئة وأربعة وثمانين بيتا في ديوان كعب بن مالك الأنصاري أربعمئة واثنين وثلاثين بيتا مما ورد في السيرة ، ومعظم ما لم يرد في السيرة هو مما قيل في مقتل عثمان بن عفان [٣٥] .

أما ديوان عبد الله بن رواحة فقد تم جمع معظم شعره الإسلامي من السيرة النبوية، فالأبيات المروية في السيرة و جمعها د . وليد قصاب في ديوان عبد الله مئة وثلاثة عشر بيتا من بين مئة وخمسة وستين بيتا هي أشعاره الإسلامية [٣٦] .

وتظهر مراجعة ديوان العباس بن مرداس السلمي أن ما في ديوانه من شعر قاله بعد إسلامه جميعه مما ورد في السيرة من أشعاره (٣٧)، وهو قريب من نصف شعره ، وأكثر شعره جاهلي لم يكن له علاقة بأحداث السيرة .

أما عبد الله بن الزبعرى فمن بين مئتين وثمانية وسبعين بيتا جمعها الدكتور يحيى الجبوري من شعره مئة وثلاثة أبيات مما ورد في السيرة (٣٨) .

ويتضح من تتبع مصادر الدواوين والمجاميع الشعرية التي أشير إليها أن السيرة النبوية رغم ما وجه إلى ما روي فيها من أشعار من نقد على لسان ابن سلام ، بقيت عند الأقدمين والمحدثين من المهتمين بأشعار العهد النبوي أهم مصادر هذا الشعر وأغزرها مادة ، وقد لا نبالغ إذا قلنا – بعد تهذيب ابن هشام – أنها أوثقها رواية . فلقد اكتسبت بعض أشعارها من الثقة وتمحيص الرواية ما لم يكتسبه شعر آخر وذلك باقترانه بتوثيق الحديث النبوي الشريف في مصادره العالية التوثيق مثل صحيح البخاري (٣٩) .

* *

خلاصة

لقد ألحق ما أشيع حول أشعار السيرة من شك ضررا بالغا بهذه الأشعار ، تمثل في قلة الدراسات التي تناولت هذه الأشعار من النواحي الفنية واللغوية والتاريخية وغيرها، ويبدو أن هذا الشك دفع كثيراً من الباحثين إلى العزوف عن دراستها ودراسة السيرة النبوية من خلالها ،وهو عزوف لا مسوغ له ، فأشعار السيرة في ظل المطاعن التي لم يسلم منها أكثر الشعر القديم لا تقل وثاقة عن غيرها من الأشعار القديمة المنقولة رواية .

وقد تبين أن ما شاع من عدم الثقة في أشعار السيرة قد يكون مرده بصورة أساسية إلى ما وجهه ابن سلام من نقد لعمل ابن إسحاق في السيرة، ويبدو أن أحكام ابن سلام ظل لها حضور قوي بالرغم مما قام به ابن هشام من تدقيق وتهذيب لأشعار السيرة جعلها لا تختلف كثيراً عن غيرها من الشعر القديم .

وتبين من مراجعة أشعار بعض الشعراء الذين لهم أشعار كثيرة في السيرة أن السيرة قد حفظت أشعار هؤلاء ولولاها لضاع كثير من الشعر .

* *

الهوامش

(١) طبقات فحول الشعراء: ج١، ص٨-٩.

(٢) المصدر نفسه : ج١ ، ص١١.

(٣) المصدر نفسه : ج١ ، ص٢٤٧ .

(٤) المقصود تهذيب ابن هشام المتوفى سنة(٢١٨) لسيرة ابن إسحاق .

(٥) الفهرست : ص٣٦.

(٦) تاريخ آداب العربية : ص٣٧٦.

(٧) أصول الشعر العربي : ص٦٠.

(٨) في الأدب الجاهلي : ص١٦٨-١٦٩.

(٩) السيرة النبوية : ج١، ص١٦.

(١٠) فقد دأب كتاب السير والمغازي في كتبهم على ذكر الأشعار التي قالها من يرد ذكرهم في حوادث السيرة .انظر المغازي الأولى ومؤلفوها :ص ٢٤ .

(١١) طبقات فحول الشعراء:ج١، ص٢٤٧ .

(١٢) طبقات فحول الشعراء : ج١، ص٢١٥.

(١٣) السيرة النبوية:ج١، ص٤ .

(١٤) مصادر الشعر الجاهلي : ص٣٣٧.

(١٥) المصدر نفسه : ص٣٣٩.

(١٦) المصدر نفسه : ص٣٣٩.

(١٧) المصدر نفسه : ص٣٣٩.

(١٨) المصدر نفسه : ص٣٣٩ .

(١٩) المصدر نفسه : ص٣٤٠-٣٤٥.

(٢٠) المصدر نفسه : ص ٣٤٣-٣٤٥ .

(٢١) المصدر نفسه : ص٦٠١ .

(٢٢) المصدر نفسه : ص٦٠١-٦٠٦ .

(٢٣) السيرة النبوية : مقدمة المحققين ج١، ص١٨ .

(٢٤) المصدر نفسه : ج١، ص٨-١٠.

(٢٥) انظر المصدر نفسه : ج١، ص٤٠-٤١.

(٢٦) انظر الفهرست : ص٨٧ . وانظر أخبار النحويين البصريين : ص٦٨ .

(٢٧) السيرة النبوية : ج١، ص٤٣-٤٤.

(٢٨) انظر الروض الأنف :ج١، ص١١.

(٢٩) مصادر الشعر الجاهلي : ص٦٠٠-٦٠٤.

(٣٠) ملحوظات على ديوان عبد الله بن الزبعرى : ص١١٥ .

(٣١) انظر ديوان حسان بن ثابت : ص١٨.

(٣٢) انظر المصدر نفسه: ص١٨.

(٣٣) انظر ميزان الاعتدال :ج١، ص ٣٥٦ .

(٣٤) *انظر* ديوان كعب بن مالك الأنصاري : ص ١٦٢ .

(٣٥) انظر المصدر نفسه : ص ١٥٣- ١٥٤.

(٣٦) انظر ديوان عبد الله بن رواحة : ص ١١١ - ١١٣ .

(٣٧) انظر ديوان العباس بن مرداس السلمي : ص ٢٨

(٣٨) انظر شعر عبد الله بن الزبعرى : ص ٢٩ - ٥٠ .

(٣٩) انظر صحيح البخاري : ج٤ ، ص ٢٥- ٢٦. وانظر فتح الباري بشرح صحيح البخاري : ج٦ ، ص١٦١ . وانظر صحيح مسلم : ج٣ ، ص١٤٣٠- ١٤٣١ .

المصادر والمراجع

١- أخبار النحويين البصريين ، أبو سعيد السيرافي ، تحقيق محمد إبراهيم البنا، الطبعة الأولى ، دار الاعتصام ، القاهرة ، ١٩٨٥.

٢- أصول الشعر العربي ، د.س. مرجليوث ،ترجمة الدكتور يحيى الجبوري، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٩٨١ .

٣- تاريخ آداب العربية ، مصطفى صادق الرافعي ، القاهرة ، ١٩١١.

٤- ديوان حسان بن ثابت ، تحقيق الدكتور وليد عرفات ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٧٤.

٥- ديوان العباس بن مرداس السلمي ، تحقيق الدكتور يحيى الجبوري ،الطبعة الأولى الجمهورية ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٩٩١ .

٦- ديوان عبد الله بن رواحة ودراسة في سيرته وشعره ،د. وليد قصاب ، الطبعة الأولى ، دار العلوم ، ١٩٨٢ .

٧- ديوان كعب بن مالك ،تحقيق سامي مكي العاني ، مكتبة النهضة ، بغداد ، ١٩٦٦ .

٨- الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام ، السهيلي ، دار الفكر، بيروت .

٩- السيرة النبوية لابن هشام ، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي ، دار الكتب العلمية ، بيروت .

١٠- شعرعبد الله بن الزبعرى ، تحقيق الدكتور يحيى الجبوري ،مؤسسة الرسالة، بيروت ، ١٩٨١ .

١١- صحيح البخاري ، محمد بن إسماعيل البخاري ، تحقيق زهير بن ناصر الناصر ، ط١ ، دار طوق النجاة ، ١٤٢٢ .

١٢- صحيح مسلم ، مسلم بن الحجاج النيسابوري ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت .

١٣- طبقات فحول الشعراء ، محمد بن سلام الجمحي ، تحقيق محمود محمد شاكر ، مطبعة المدني ، القاهرة .

١٤- فتح الباري بشرح البخاري ، ابن حجر العسقلاني ، دار المعرفة ، بيروت ، ١٣٧٩ .

١٥- الفهرست ، ابن النديم ، المكتبة التجارية ، القاهرة .

١٦- في الأدب الجاهلي ، طه حسين ، دار المعارف ، القاهرة .

١٧- مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية ، الدكتور ناصر الدين الأسد ، دار الجيل ، بيروت ، ١٩٨٨ .

١٨- المغازي الأولى ومؤلفوها ، يوسف هورفتس ، ترجمة حسين نصار ، القاهرة ،١٩٤٩ .

١٩- ميزان الاعتدال ، الذهبي ، تحقيق علي محمد البجاوي ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ، ١٩٦٣ .

* * *